باب المراسلة والمناظرة

فناء النار والرد على ابن القيم

٢

قسمنا الموضوع في الكلام على فنائها ثلاثة اقسام الاول في الآثار التي استشهد بها العلامة ابن القيم على فنائها الثاني على الآيات الثلاثة الثالث على مقتضى الصفات ومجال العقل فيها

أما الاول فقد تكلمنا عليه في النبذة الاولى وبينا أن الآثار لا تصح عن عمر ولا عمن روى عنه من الصحابة (رض) وقلنا حتى لو صح لما كان حجة في هذه المسألة الكبرى الاعتقادية. وأما الكلام على الآيات الثلاث فمداره على تحقيق معنى الخلود المستثنى منه أولا والمشيئة ثانيا والمقصود من الاستثناء ثالثا وهل هذه الآيات من المحكم أو من المتشابه

أما الخلود المذكور في هذه الآية (آية الانعام) وآية هود وجميع آيات القرآن فهو لا يعرف الا من كتب اللغة وقد رأينا لسان العرب الذي هو اكبر قاموس واعظم معجم عربي يقول: (الخلد) دوام البقاء في دار لا يخرج منها خلد يخلد خلدا وخلودا بقي واقام ودار الخلد الآخرة لبقاء أهلها فيها اه. ومما يدل على انهم يستعملون الخلد مجازا فيما لا يبقى الطول مدته قول صاحب اللسان: والمخلد من الرجال الذي اسن ولم يشب كأنه مخلد لذلك وخلد يخلد خلدا وخلودا أبطأ هذه الشيب كأنما خلق ليخلد قال والخوالد الآثافي في مواضعها والخوالد الحجارة والجبال والصخور لطول بقائها بعد دروس الاطلال اه. فانظر الى قوله فيمن ابطأ عنه الشيب (كأنما خلق ليخلد) وقوله (لطول بقائها) للاثافي والحجارة والجبال فانهم شبهوها بما يبقى ولا يزول وتصوروا فيها لطول البقاء مايصح ان يطلق عليه لفظ الخلود الذي لم يوضع الا لدوام البقاء كما ذكر معناه الاول أول المادة ومنه تعلم أن الفناء مناقض له كل التناقض لانه تعلم البقاء الذي اخبر الله به وعدا ووعيدا في سبعمائة آية من كتابه في الجنة والنار ففرق قوم بين الاخبار بدون دليل يصار اليه ويقوم حجة على خصمهم تقول لهم يا قوم عداكم الله في كل من الجنة والنار قال الله «خالدين فيها أبدا» و«خالدين فيها» دون أبدا، فبأي شيء فرقتم بين الخلودين والابدين فلا تجدوا إلا

تدليلات واهية وكلاما طويلا ضرره اكثر من نفعه كأنهم لم يجدوا غير الخلاف صناعة ولا سوى الكلام بضاعة حتى اضطر ان يجاريهم من لم يكن منهم ابن قيم الجوزية وحسبنا الله ونعم الوكيل

واما الابد فقال في اللسان في مادة أبد: والابد الدائم والتأبيد التخليد وأبد بالمكان يأبد بالكسر أبودا أقام به ولم يبرحه اه . فعلى هذا لا يستدل بما اصطلح عليه الناس (كالمصريين) في التأبيد اذ جعلوا له مدة محدودة ولم ينزل القرآن بلغتهم ولا هبرة باصطلاح ولا عرف يخالف اصل اللغة التي نزل بها كلام الحكيم الخبير :

فاسمع لقوله تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون ، كل نفس ذائقة الموت) فانظر كيف قابل الخلد بالموت الذي هو الفناء وتأمل معناه تجده كما قال صاحب اللسان انه دوام البقاء فكأنه يقول لرسوله وما جعلنا لبشر من قبلك دوام البقاء أفئن مت فهم الباقون ، كل نفس ذائقة الموت الخ وهذه الجملة الثانية مؤكدة لمعنى ما قبلها فغفر الله لنا ولهم وهدانا واياهم سواء السبيل

واذ قد عرفنا[1] معنى الخلود الوارد في الآية وانه هو الذي به علمنا دوام بقاء المؤمنين في الجنة كما علمنا به دوام الكافرين في النار وانه هو الاول في الالفاظ الدالة على معنى البقاء والابد بعده في الترتيب ولا يعرف في اللغة لفظ أدل على البقاء منهما في المخلوقات على ما أظن

وأما ما ذكر في الاساس من مثل قولهم : رزقك الله عمرا طويلا الآباد بعيد الآماد: فهو مبني على التوسع وتصوير ما لا يكون في حيز الكائن على حد قول الشاعر: « وتخافك النطف التي لم تخلق »[2] ومثل هذا كثير في قولهم[3] ولكننا نسائلهم في أصل وضع الخلود والابد وقد عرفت معناهما عن اللسان فيما تقدم[4] على ان الله تعالى اخبر بكل لفظ مفيد

---

(١) المنار : ليس في بقية الكلام جواب لقوله واذ قد عرفنا

(٢) المصراع من بيت للمتنبي وهو

وأخفت أهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التي لم تخلق

واسناد الخوف الى النطف فيه من المجاز العقلي (٣) جعل عبارة الاساس من المجاز وهي فيه من الحقيقة ومزية الاساس على سائر كتب اللغة التفرقة بين الحقيقة والمجاز

(٤) المنار : ما نقله عن اللسان في تفسيرهما لا يدل على معنى البقاء الذي

الدوام والبقاء عن كانا الدارين وكلا الفريقين فقال لهم فيها دار الخلد وقال هذا لهم مقيم

اذا عرفنا ما تقدم أمكننا أن ننظر في الاستثناء المذكور في آية الانعام جاعلين نصب أعيننا ماورد في آيات الله تعالى من وعده للمؤمنين ووعيده للكافرين وكذلك الاحاديث الصحيحة المصرحة بخروج عصاة المؤمنين من النار. أما الآيات المصرحة بدخول الكافرين النار فهي كثيرة وعلى كثرتها محكمة لاناسخ فيها ولا منسوخ ولا متشابه(١) ولا يصح أن نؤول كل هذه الآيات ونركب كل صعب وذلول حتى نجعلها كلها من باب الرعد الذي ليس وراءه شيء لنظمها في سلك آية وجد فيها ذو والشبه ما يوافق اهواءهم ويشبطون به هم غيرهم ويشغلون به الافهام وكم في الاسلام بهم ونفذت فيه سهامهم حتى اختلفنا في كتابنا كما اختلفوا في كتابهم وكان ذلك قدرا مقدورا قال تعالى (ويوم يحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا اجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم) فالمعنى خالدين فيها يا أهل النار (؟) (وهم من مرذكرهم) الا ماشاء الله من هذا الخلود (؟) أن يخرجهم من داره (؟) لانه حكيم لايخلد الا الكافر الذي اخبر عنه في كثير من آياته ، عليم بمن يخرج من أهل الايمان الموحدين . فالآية قد جمعت وعدا ووعيدا وكثيرا ما يذكر الله في آياته أحدهما بعد الآخر على حد قوله تعالى (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين ٭ والذين آمنوا وعملوا الصالحات الخ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) وكقوله تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ٭ الا من

= لانهاية له فان المقيم في دار لا يخرج منها كالملك لداره ليس بباقي هذا البقاء لاهو ولا داره بل كانوا يطلقون هذا على من شأنه المكث وعدم التحول كما يتحول البدوي والذي يقيم في الدور المستأجرة . وانما البقاء الذي لانهاية له اصطلاح شرعي لا لغوي فلم يكن هذا المعنى معروفا عند عرب الجاهلية

(١) لا معنى لنفي النسخ لانه خاص بالاحكام

تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً) فما يخبر سبحانه بوعيد وانذار ألا ويعقبه بوعد وبشارة (ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) فلما أنذر قوماً في هذه الآية بالخلود في النار على استتباع بعضهم ببعض وموالاة بعضهم بعضا وكان بعض المؤمنين الذين ألموا ببعض الذنوب ولحقهم من الوصف شيء يحزنهم ذلك حتى يؤديهم الى اليأس لاجرم استثنى الله تبشيرا لهم وإخبارا بحكمته وعلمه وعدله في آية واحدة ولا يبعد هذا بهم فقد ورد أن بعض الصحابة لما سمع قوله تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون) قالوا وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم ذلك الشرك وقرأ (أن الشرك لظلم عظيم) فلولا أن فسرها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية الاخرى ليئسوا وقنطوا ومثل ذلك ماجرى عند نزول قوله تعالى (وإن تبدوا ما في أنفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله الخ ثم انزل الله لهم (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) الخ

اذا تقرر هذا وعلم أن الانذار في آية الانعام بالخلود شديد وأن السكوت عليه قصور لو كان في كلام الناس لعد معيبا فكيف بأبلغ الكلام الذى أنزل رحمة للعالمين. فهل بعد هذا يستنكر ذو فهم وتأمل في كلام الله أن يجمع بين وعد ووعيد ونذارة وبشارة في آية واحدة، على أن النذارة بالخلود لمن يستحقونه كما أشار بذلك الحكيم العكاء الذين يفهمون وان البشارة لمن يستحقون (؟) ممن عرفنا خبرهم في القرآن والاحاديث والله أعلم بهم وبما اقترفوا وجزاء ما كانوا يقترفون : هذا ما أفهمه في الآية مع استحضاري الآيات الاخرى والاحاديث ولم يشف غليلي ما رأيته من وقف المتوقف وتأويل المتأول، وهذا هو وجه الاستثناء لا ما قالوا من انه يأتي على ما في القرآن حاشى لله أن يكون خبر واحد يهدم بناء أخبار أدعيت على العلم والحكمة حتى لو كان مجردا عما أشرنا اليه من وجوه البلاغة والاعجاز ولان تؤوله ليوافقها لكان أسهل من أن تؤولها كلها

ومن العجب أنه قد حضر عندي أخ في الله من أهل العلم وتحاورنا في الموضوع فكان هو فاتيا وأنا بقاتيا فما زال يؤول كل آية جئت بها دالة على البقاء بحذق

وبراعة « على طريقة الازهريين » حتى جئت له بآية الاعراف (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط) الآية فوجم فقلت ماذا ؟ أجب فقال انتظر ، ثم بعد هنيهة قلب بالبته ما قال : نعم هو كما قال الله تعالى مادامت النار لا يدخلون الجنة ولكنها ستفنى . فقلت ثم ماذا بعد ما تفنى أيدخلون الجنة وتزول الاستحالة بفناء النار ؟ فضحك من تأويله فلينظر الناصح لنفسه البصير بكلام ربه وليجعل الرحمة في محلها كما اخبر الله بها عن نفسه وينظر الى المشيئة بعين الحكمة ولا ينظر الى صفة دون صفة بعين عشواء . واذ قد ألمعنا الى ذكر شيء من وجوه الاستثناء فلنتكلم على المشيئة المستثناة وإن كانت هي أحق بالكلام قبل الاستثناء لذكرها أول الفصل ثانية

اخبرنا الله تعالى في آيات كثيرة أن مشيئته موافقة لحكمته وانه لا يشاء عبثا ولا ظلما قال تعالى (يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا اليما)[1] فهذه الآية تدل

---

(١) فسر بعضهم الرحمة هنا بالجنة وبعضهم بالتوفيق لما تستحق به والمعنى أنه يدخل المؤمنين المتقين في جنته وأعد للظالمين لانفسهم بالكفر وكبائر المعاصي عذابا أليما اذا ماتوا على ذلك الظلم ولم يتوبوا منه . وليس فيها ما ذكر من معنى الحصر في ان رحمته لا يدخل فيها الا الذين لم يتصفوا بالظلم المقابل للعدل — وانما معناها أن ما أعده للظالمين من حيث هم ظالمون هو العذاب الاليم ان ماتوا على ظلمهم ولم ينلهم العفو وما كل ما أعد لقوم ينالهم كلهم والوعيد باعداد العذاب دون الوعيد بوقوعه كقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) وقد روي تخصيص تعدي الحدود هنا بمخالفة أحكام المواريث المذكورة قبله وأهل السنة مجمعون على جواز العفو عن العاصي بذلك وبغيره والظالم بغير الشرك بالله وهم يؤولون هذه الآية الجازمة بخلود العاصي في النار والعذاب المهين كما يؤول القائلون بانتهاء عذاب الكفار الآيات الواردة فيهم . وغرضنا هنا بيان أن الحصر الذي قال الكاتب انه لا احتمال للشك فيه غير صحيح وقد ذكر الله تعالى أن ممن أورثهم الكتاب من المصطفين من عباده من هو ظالم لنفسه فالظلم كالفسق والاجرام يطلق في القرآن على الكفر تارة وعلى المعاصي أخرى . وآية الفتح التي جعلها الكاتب مثل هذه الآية وردت في تعليل =

دلالة صريحة لا مجال للشك فيها على أنه لا يدخل في رحمته الا غير الظالمين وانما الذي عرفنا انه لا يشاء الا هم قوله والظالمين اعد لهم عذابا اليما فالناس قسمان ظالم وعادل والدار داران جنة وناو فلما ذكر الظالمين وما اعد لهم عرفنا أن القسم الذي شاء ادخاله في رحمته ضدهم وهم المؤمنون أو المقسطون أو كما تسميهم أفلا يصح أن تنزل المشيئة المذكورة في آية الانعام وهو رد على هذا التقسيم الظاهر وأن الله لا يشاء فناء النار الذي يهدم كل زجر ووعيد في القرآن ويطمع كل ذي كفر وبهتان وجبار عنيد وشيطان

ومثل هذه الآية قوله تعالى (ليدخل الله في رحمته من يشاء) فهل يظن عاقل أن معنى هذا يدخل الله كافرا الجنة أو مؤمنا بنيا النار (؟) أم انه لا يفعل الا ما اقتضته حكمته التامة : وأن مشيئته في هذه الآية وفي أمثالها مقيدة بمثل آية (هل أتى على الانسان حين من الدهر) وغيرها مما سنذكره قال تعالى (ومن يهن الله فماله من مكرم ان الله يفعل ما يشاء) فالنظر الى قوله تعالى عقب الآية أنلبس قوله هنا (ان الله يفعل ما يشاء) كقوله عقب آية هود (ان ربك فعال لما يريد) التي كاد يشبهها علينا ابن القيم رحمه الله بقوله « ولم نعلم ما يريده بهم » أي الذين شقوا قال وأما الذين سعدوا فقال فيهم « عطاء غير مجذوذ » فبالله ألا فتأملوا أيها المنصفون فوالله لقد أخطأ ابن القيم ان كان يعتقد أن قوله تعالى (ان ربك فعال لما يريد) فيها المانع أو اشارة الى فناء النار ومن يفهم هذا الفهم أو يجوزه بعد ان سمع ما أوردناه وما سنورده قال تعالى (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد) ماذا يقول الفانيون في هذه الآية أيضا أيقولون لا ندري ما ذا يريد الله بأهل الجنة كما قالوا في آية هود والا فما الفرق بين الخبرين فليخبرونا ولهم الثواب (١) فقد علم كل من له أدنى تأمل في القرآن أن

= كف أيدي المؤمنين عن القتال يوم فتح مكة وفسرت الرحمة فيها بالاسلام.

(١) ان الفرق عندهم جلي وان كان لا يدل على فناء النار — وابن القيم لا يقول به — وهو أن الخبر الاول جاء عقب الخبر بادخال المؤمنين الصالحين الجنة بغير استثناء والثاني جاء في كون الذين شقوا في جهنم خالدين فيها الا ما شاء ربك تعالى وهذا الاستثناء مبهم فقالوا لا نعلم ما يريده به وبهم ، ومنهم من كان نظره في القرآن أعلى التأمل لا أدناه وان جاز عليهم الخطأ كما يجوز على غيرهم

ارادة الله تعالى ومشيئته قد علمت في أهل الجنة وأهل النار وأن كلا قد قضي عليه بالخلود في داره التي خلق لها وسعى لها سعيها وظهرت تلك المشيئة في الفريقين بأجلى مظاهرها . فترى أهل النار لا يهتدون ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون ، وأهل الجنة موفقون مهديون (وتمت كلمة ربك لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) قال تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) ألم يبين الله لنا مشيئته هنا ايضا بالمؤمنين والظالمين؟ ألم يكن ختامها هنا كختامها في سورة هود؟ هل يفهم منها هنا إلا كما يفهم من تلك؟ وأن المنفي لا اعتراض على فعل الله لانه هو الحكمة التامة والعدل الاعلى وأنه لامكره له ولا راد لما قضاه أم يقال ما قرره الفنائيون الذين نظروا لآية واحدة وتركوا سائر الآيات فقالوا : أما الذين سعدوا فأخبرنا الله أن عطاءهم غير مجذوذ وأما الذين شقوا فلم يبين لنا ماذا يريد بهم . والحق انه بين وبين كما سمعت وعلمت :

واما الكلام في آية النبأ فلا دليل فيها لهم وآخرها يرد عليهم اذ يقول الله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا) ولن تفيد الاستقبال حتى احتج بها الزمخشري على نفي الرؤية (رؤية الله في الجنة) في قوله تعالى لموسى (لن تراني) وفرق بين الخبرين فان هذا نفي الرؤية في الدنيا وأما الثاني فنفى في الآخرة وقوله تعالى آخر السورة (ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا) دليل على ان الكافر كان يود لو كان ترابا ولا يعذب خالدا . ولا يقال تمنيه ذلك كاف لرؤيته العذاب فحسب دون الخلود لانه لو كان يعلم ان النار تفنى من الآن كما يقولون لقال على أمله ورجائه في رحمة الله (١) كما فهم ابن القيم من حديث لو يعلم الكافر بسعة رحمة الله ما يئس ولو يعلم المؤمن بأليم عذاب الله أو نحو ذلك لقنط وقوله تعالى (لابثين فيها أحقابا) لا يدل على انقطاعها كما قدمنا فانما المقصود التهويل وان الاحقاب قد تأتي متتابعة ولا تتناهى . أرأيت لو كنا هنا في الدنيا خالدين أما كنا نقول مضت علينا أحقاب وتعاقب الزمن وهو باق كما يمكن أن نعد شيئا لا يحصى بالالوف والملايين وأنتهى نسأل من

(١) يرد على الكاتب ما نقله هو عن عمر من تمنيه لو كان شجرة تعضد [illegible]

الحساب: كالديشليون وكلما فرغت الفصول أعدناها من الاول عدا ولم يفرغ المعدود فمن يستنكر ذلك؟ وهل هذا الا من باب قوله تعالى في أهل النار (خالدين فيها ما دامت السموات والارض) والغرض الخلود الذي لانهاية له لان المخاطبين يجهلون مدة الارض والسموات والمجهول أوله وآخره كالذي لا أول له ولا نهاية فلذلك والله أعلم صور لنا الخلود لنعلم عظمه بالنسبة لبقاء الدنيا وعمرنا القصير فيها فأما المؤمن فيفرح بنعيم الخلود في الجنة وأما المنافق فيحزن حزنا شديدا وتنغص عليه حياته اذا سمع هذا الوعيد الشديد. فالاول تملو همته ويقتحم الشدائد بقلب ملؤه الصبر والامل والسرور . وذلك يجاهد ليذب عنه هذه الزواجر ويفر منها فرار الحمر المستنفرة وهي في أثره حتى ينقلب في هوة العذاب السحيق و بئس المصير

وبعد فاما أن تكون هذه الآيات متشابهة أو محكمة. فان كانت متشابهة فقد كان على الفريقين أن يقولوا آمنا عملا بقوله تعالى (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) وما كان لهم أن يكثروا الكلام ويطيلوا الخصام ويقفوا مالا يعلم لهم به علم من صفات الله واسمائه ويتحكموا في حكمته ومشيئته بعلمهم القاصر[1] وأن لله اسماء وصفات لا يعلمها الا الآن أحد كما ورد في حديث (واسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو انزلته في كتابك او علمته أحدا من خلقك او استأثرت به في علم الغيب عندك الخ . وحديث الشفاعة اذ يعلم الله تعالى رسوله محامد يحمده بها . ولا ريب أن المحامد تكون على اسماء تقتضيها وتستحقها والله اعلم أفما كان الاولى بهم أن يسكتوا بعد أن يقولوا آمنا به الخ . وان كانت محكمة فالامر ظاهر ولا داعي للخلاف والجدال والقول على الله بلا علم ولنا اسوة بالصحابة الذين كانوا يسألون عما يعنيهم فيقولون لرسول الله ما أفضل الاعمال. ودلني على عمل اذا عملته دخلت الجنة الى غير ذلك

ولعل في هذا الآن كفاية وله بقية

عبد الظاهر محمد

---

(١) يرد على هذا أن ابن القيم قال بالتفويض والوقوف عند قوله تعالى ان ربك حكيم عليم) وجعله نهاية الاقدام في السير في هذا المقام وهو ذو العلم الواسع بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم